البعد القومى فى القصيدة السياسية لعبد الله البردونى

عبد الفتاح أحمد باعباد(*)

تمهيد:

إن صورة العالم العربى جعلت الشعراء اليمنيين لا ينفكون عن عالمهم العربى، فلم تكن هذه الصورة قبل هذا الوقت أسوأ منها الآن، فهى حالة أقرب إلى فقدان القومية وفقدان الاتزان والهدف، حتى إن نظرة سريعة إلى الخريطة العربية تكشف عن حجم المأساة التى عانت وتعانى منها الأمة، ابتداء من نكبة ١٩٤٨م فى فلسطين، ثم نكسة ١٩٦٧م التى منى بها العرب، مرورا بالحرب الأهلية الطاحنة فى لبنان واحتلال إسرائيل للجنوب منه، ثم الانتقال إلى الحرب بين العراق وإيران التى استمرت ثمانى سنوات بلا طائل، وصراع جزائرى مغربى على الصحراء المغاربية، وصراع حدودى بين السعودية من جهة وكل من اليمن والبحرين وقطر من جهة أخرى، وحرب سودانية أهلية بين المتمردين فى الجنوب والحكومة المركزية، واجتياح عراقى مشبوه للكويت، ثم استرداد لها مع تحالف دولى لم يسبق له مثيل، وحرب انفصالية فى اليمن هدفها تشطير اليمن.

هذا الواقع منح الشعر مبرراته للتمرد؛ إذ رأى الشعراء فى اليمن أن الواقع – بكل أبعاده – يدعو إلى التمرد، الذى يصور الشعراء فيه زيف الواقع والحكام وفسادهم، فشكلت هذه الأحداث الخاصية التى أنعشت القصيدة السياسية. وإذا كانت القصيدة السياسية تتبنى "لا"؛ فإنها فى الوقت نفسه تتبنى "نعم"؛ لأنها حين يأتى بها الشاعر لا يريد الرفض التام لكل الجوانب التى يتحدث عنها.

(*) باحث يمنى حاصل على الماجستير فى الدراسات الأدبية واللغوية

البعد القومى عند البردوني:

منذ زمن طويل وصوت الشاعر فى اليمن فى لقاء دائم مع أصوات أشقائه العرب، من شعراء وأدباء ومفكرين، فى التعبير عن القضايا العربية. ويعد البردوني من الشعراء القوميين فى تعبيره عن قضايا أمته المعاصرة، متناولا إياها بالنقد والتقويم المتميز، ومعتمدا فى الوقت نفسه على الوضوح والمباشرة فى طرحه إياها، وكان الدافع من وراء ذلك إحساسه بتحمل المسئولية. وقد كان البردونى من أكثر الشعراء تفاعلا مع قضايا أمته، لاهتمامه بتاريخها والأحداث التى تمر بها، والتى تعبر عن مدى التفكك الذى تعانى منه، مع البحث عن الحلول المناسبة لتلك الأحداث والقضايا التى تناولها؛ لأن الشعر القومى "تعبير عن وجدان الأمة من خلال نفسية الشاعر". والقضايا القومية التى تناولها البردوني كثيرة، وسنتناولها هنا وفق التسلسل التاريخى:

القضية الفلسطينية:

تمثل القضية الفلسطينية أبرز هموم الإنسان العربى، فقد احتلت حيّزا واضحا فى إبداع البردوني وأصبحت همّا لا يفارقه. وقد كانت بدايته قصيدة "يوم الميعاد" التى نادى فيها بالعمل الفدائى قبل ظهوره على الساحة، جاعلا من أبناء فلسطين – ومن النازحين بصفة خاصة – طلائع الزحف وقادة الموكب، من أجل العودة وإعادة الحق المسلوب؛ قائلا:

يا أخِي يابنَ الفِدى، فِيمَ التّمادِي ... وفلسطينُ تُنَادي وتُنَادي؟
ضَجّتِ المعْرَكة الحَمرا... فقُمْ: ... نلتَهِبْ.. فالنُورُ من نار الجهادِ
ودعَا داعِي الفِدى فلْنَحتَرِقْ ... فى الوَغَى، أو يحترق فِيها الأعَادى
يا أخِي يَابنَ فلسْطِينَ التِي ... لم تزلْ تدعُوكَ من خلفِ الحِدادِ
عُدْ إليها لا تقُلْ : لم يقتَربْ ... يوم عَودى، قل: أنا "يومُ المَعادِ"

أكد البردونى فى هذه القصيدة حتمية العودة إلى الوطن، التى وإن كلفت الفلسطينيين كثيرا؛ فإنها ضرورية وحتمية للتحرير. وقد جاء اختيار الشاعر لبعض الألفاظ (تنادى، معركة حمرا، نلتهب، نحترق...) ليعكس مدى التمسك بالعودة؛ فضلا عن تكرار (تنادى) وما يقابله من توظيف لأسلوب الأمر (قُمْ، عُدْ، قُلْ، انطلقْ، ...)، إضافة إلى ذلك توظيفه النهى الذى يوازى الأمر (لا تقلْ). وعلى الرغم من أن القصيدة اتسمت ببساطة ألفاظها، وسلاسة تراكيبها؛ فإنها تضمنت نغمات حزينة أسهمت – إلى حد كبير – فى الإيحاء إلى فكرتها.

لقد عمل البردونى فى كثير من المحافل والمناسبات على بث الأمل فى نفوس الشعوب، والدعوة إلى عناق يوم النصر الموعود ووحدة الأمة، التى تمثل شرطا أساسيا من شروط العودة إلى فلسطين:

يا فِلسْطينُ حققتْ وحدةُ العُرْ ... ب أمانيكِ فاطمحِى واستزيدِى
وانفضِى عنْ رُبَاكِ سُودَ الليَالى ... واستفيقى علَى زئيرِ الأسُودِ
هَذِهِ "غزَّةٌ" تفيضُ التهاباً ... والجُنُودُ الأُباةُ تلوَ الجُنُودِ

ومع هذا فالبردونى لم يحمِّل أحدا معينا مسئولية سقوط فلسطين، بل ظل الأمل متجليا فى قصائده، وهذا ما تميز به عن غيره من الشعراء، فهذا الشاعر (مظفر النواب) فى ديوان "القدس عروسُ عروبتكم"؛ يقول:

القُدسُ عَروسُ عُروبتكمْ
فلمَاذا .. لمَاذا
أدخلتُم كُلَّ زُناةِ الليلِ إلى حُجرَتِها
ووقفتُم تَسْترقُونَ السمْعَ وراءَ الأبوابِ
لصرَخاتِ بَكارتِها

وسحبتُم كلّ خناجركمْ..

وتنافحتُم شَرفاً

وصرختُم فيها أنْ تسكتَ صَوناً للعرض

(أولاد.....)

هلْ تسكتُ مُغتصبَه

هكذا جسد مظفر النواب قضية فلسطين، والانحطاط العربى الذى تمثل فى إلحاق الذل والعار والهزيمة بهم مادامت هذه نظرتهم. أما البردوني فكان ينظر إلى القضية على أساس العمل على تحريرها، وإخراجها من دنس المستعمر الغاصب، بدون تعريته الأوضاع التى كانت عليها الحال، بل عمل على إيجاد الروح الجهادية فى نفوس أبناء الأمة من خلال قصائده السياسية، بدون التعامل مع الأمل المفقود والحلم الضائع، الذى أصبح مستحيلاً فى زمن الموت العربى، والذى صاح به نزار قبانى، قائلا :

سقَوا فِلسطِينَ أحْلاماً مُلوّنَة   وأطعَمُوها سَخيفَ القول والخُطبا

عَاشُوا على هامِش الأحْداثِ ما انتفضُوا   للأرْض منهوبة والعرض مُغتصبَا

وخلفوا القدسَ فوقَ الوَحْل عَاريَة   تُبيحُ عَزّة نهدَيها لمنْ رغِب

ونزار عندما يصل فى إدانته للعرب إلى هذا الحد، إنما يهدف من ورائه إلى الكفر بالحكام العرب، الذين راحوا يتخبطون وراء شهواتهم وأهوائهم، فهم يخادعون أنفسهم أولا، ثم يخادعون شعوبهم المغلوبة على أمرها، متخذا لذلك أسلوبا تقريريا سلبيا.

أما البردونى فغلبت اللغة عنده على الأساليب الإنشائية (اطمحى، انفضى، استفيقى...)، فهو لا يلتفت إلى الماضى، ولا يبحث عن المخطئ أو المسئول، بل انصب شعره على الدعوة إلى المقاومة.

الوحدة العربية:

كانت الوحدة العربية – ولا تزال – أملا يحلم به كل عربى، فقد شغل هذا الأمل كثيرا من الشعراء العرب، ومنهم شعراء اليمن.

وقد عبّر الشعر اليمنى عن الوحدة العربية من خلال منطلقين مختلفين؛ أحدهما: ينظر إلى الوحدة من خلال صور الماضى، حين كانت الأرض العربية مراحا للإنسان العربى، يتحرك فيها من مكان إلى آخر بدون قيود... ومن هذا المنطلق تبدو الوحدة العربية مستندة إلى مجموعة من المقومات المشتركة بين الشعوب العربية (كالدّين واللغة والميراث الحضارى... إلخ).

والآخر: منطلق ثورى، يرى الوحدة العربية من خلال وحدة الكفاح فى سبيل التحرر، والثورة على نظم الحكم الرجعية، فى سبيل خلق نوع من التآلف بين شكل الحكم، وآمال الشعوب العربية فى شتّى أرجاء الوطن العربى، فعند ذلك تتحقق الوحدة على الصعيد السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى، والفكرى، ويصبح الوطن العربى قوة دولية لا يستهان بها.

وقد احتلت الوحدة العربية عقول كثير من المثقفين العرب، سواء أكانوا مفكرين أم أدباء أم سياسيين، فكان لها الحيز الأوسع فى تفكيرهم. وقد تمخض عن ذلك عقد المؤتمرات فى أكثر من دولة عربية؛ لكن ذلك لم يمنع تعرض هذه الفكرة لهجمات أيديولوجية وإقليمية منذُ بدايتها، كانت العائق الأكبر لها؛ ومن تلك البوادر ذلك اللقاء العربى الذى عقد عام ١٩٥٦م بين أقطاب العرب الثلاثة فى ذلك الوقت: الإمام أحمد والرئيس جمال عبد الناصر وجلالة الملك سعود، الذى مثل بادرة مهمة لالتحام الشمل العربى، وبهذه المناسبة كتب

البردونى قصيدة "البعث العربى" التى جسّد فيها وحدة الدم والعرق والأمــانى، مستعيدا لذلك صورا من أمجاده العربية القديمة؛ قائلا فيها:

وَحدَةُ المجـدِ والفَخـار التّليـدِ	زَعْزَعتْ مرقدَ الـصبَّاح الجديـدِ
وحدة" يَعْرُبيّـةٌ وانطــلاقٌ	عربىٌ يهُـزُّ صَـمْتَ اللحـودِ
إنما العُرب ثــورةٌ وحّــدتْهَا	يقظة البَعْثِ وانتفـاضُ الوجُـودِ
فابْنُ "يحيى" مــوْزرٌ "بجَمَـال"	"وجَمالٌ" مُـوْزرٌ "بـسُعـودِ"
وحّدتْ شملهم كِيـارٌ الأمَانـى	والدّمُ الحُـرُ واعتـزازُ الجُـدُودِ
قد تلاقى الحِجازُ والـيمنُ المـ	ـمونُ والنيلُ فى اتحـادِ الجُهـودِ

البردونى مع كل وحدة تجمع شمل العرب، بصرف النظر عن التوجهات والأيديولوجيات السياسية؛ لأن الوحدة تعنى بعث المجد العربى، وقيام الإنسان العربى من جديد، فالبردونى وحدوى التوجه، ثورى النظرة، أصيل، شــريطة أن تكون شجرة الأصالة ذات جذور تستمد نفَسها من تراثنا العربى المجيد.

ومنظور البردونى للوحدة العربية تجسد من خلال بيته الذى قال فيه :

إنّما العُربُ ثــورةٌ وحّدتهــا	يقظة البعــثِ وانتفاضُ الوجــودِ

فالثورة طريق الوحدة، وكأنه يلمح بذلك الأسلوب العملى الصحيح اللازم لتحقيق الوحدة العربية.

وتعد القصيدة من أهم ما قيل فى تلك الحقبة– أى فى الخمسينيات – لغــة وأسلوبا، وقد هيمن عليها تكرار بعض المفردات رغبة من الشاعر فى التنبيه على ما تحمله هذه المفردات من أفكار تخدم موضوع القصيدة؛ مثل (الوحدة، الدم الحر...).

وقد كان الشعر اليمنى شغوفا بمباركة أى تجمّع عربى يمكن أن يؤدى إلى أية وحدة عربية شاملة، كما هى الحال فى الوحدة التى نشأت بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م، والتى كانت بمثابة العرس الكبير لشعراء اليمن، ومنهم البردونى الذى توج تلك الفرحة من خلال قصيدته التى تحمل عنوان: "زحف العروبة" قائلا فيها:

إنا توحّدنا هوى ومَصائِراً	وتلاقت الأحْبابُ بالأحْبابِ
أتُرى ديارُ العُربِ كيفَ تضافرتْ	فكأنّ "صنعا" فى "دمشقَ" روابى
وكأن مِصرَ و"سُوريا" فى "مأربٍ"	علَمٌ وفى "صنعا" أعزّ قبابِ
اليومَ ألقى فى "دمشْقَ" بنى أبى	وأبثُّ أهلى فى الكِنانةِ مَا بى
فدِمشقُ بُستانى و"مِصرُ" جداولى	وشِعابُ مكّةَ مسرحى وشِعابى
وسماءُ "لبنان" سماىَ وموردى	"بَردى" ودجلة والفراتُ شرابى
وديارُ "عمّانٌ" ديارى...أهلُها	أهلى وأصحابُ العراق صحابى

فالبردونى يهتف للوطن الكبير من خلال تأكيد وحدة العِرق والدم والأرض؛ فدمشق بستانه، ومصر جداوله وأنهاره، ومكة مسرحه وشعابه، وسماء لبنان مورده وسماؤه، ودجلة والفرات شرابه، وديار عمان دياره، وأهل العراق أهله وأصحابه... فالدماء قد توحدت وامتزجت، فكيف لا تتوحد الأوطان؟!

ولا يغيب الماضى فى القصيدة؛ يقول:

شَعبُ العِراق وإنّ أطالَ سُكوتَهُ	فسكوتُه الإنذارُ للإرهابِ
سَلْ عنهُ سلْ عبد الإلهِ وفيصلا	يُبْلغكَ صرعُهما أتمّ جوابِ

هنا يتحدث الشاعر عن ثورة العراق التى أسقطت الحكم الملكى فى البلاد، وكأنه يلمح إلى طريق الوحدة الصحيح، من خلال القضاء على الحكم الملكى

وقيام أنظمة ثورية تحل محلها فى كل البلاد العربية، وهو بذلك يقف برِجل فى الماضى المبهم وأخرى فى الحاضر المتفتح.

ومن اللافت للنظر فى هذه القصيدة، تلك المناسبة التى أدت بالإمام أحمد إلى القيام بطلب الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة، ذلك النظام الثورى التقدمى مع نظامه الإمامى الرجعى، ولم يكن ذلك محض إرادة خاصة منه؛ وإنما لعبة سياسية يهدف من ورائها إلى اللعب بعقول اليمانيين وإقناعهم بأنه رجل تقدمى وحدوى.

وقد ازدوجت الرؤية عند البردونى فى الأبيات السابقة، فمرة يفخر فيها بالأمجاد العربية القديمة، ومرة أخرى يعلن ثورته على هذا الفخر، وكان هذا نتاجا للصورة التى تمثلت أمامه، والتى جمعت فى إطارها بين الإمام "أحمد" والملك "سعود" من جهة، و"جمال عبد الناصر" من جهة أخرى.

والقصيدة مناجاة لطيفة لإعادة مجد الأمة الغابر وإحياء تراثها التليد، الذى تحيى به حاضرها ومستقبلها. وقد اتسمت بأسلوب متماسك، وألفاظ جزلة، وأفكار واضحة، "فالشعر سلاح مرئى"، حرب عصابات "داخلية فى النفس على الأعراف والمصالح الذاتية المصطنعة".

والبردونى هنا ربط الماضى بالحاضر؛ لأن "مهمة الشاعر الثورى لا يمكن أن تُحقق بإبداعٍ أو إعادة خلق الواقع وتغييره من خلال الواقع فحسب، بل لابد لهما أن يجتاحا آبار الماضى، وأن يكشفا كهوفه السحرية التى خيم عليها الصمت لإضاءاته واكتشاف الدلالات المتجددة فيه...".

وشعر البردونى بيان سياسى لإيماناته، وإعلان صريح عن توجهاته الوطنية والقومية، فهمُّ اليمن جزء من الهم العربى كله، ومشكلات المواطن اليمنى الذى هو من الشعب عامة، هو هم العربى أينما كان فى مغرب الأرض العربية أو فى مشرقها.

مصر واليمن:

العلاقة التى تربط مصر باليمن قديمة، تجسدت حقيقتها من خلال المواقف الأخوية المتبادلة بين الشعبين الشقيقين. وقد ازدادت هذه العلاقة قوة ومتانة أيام تولى جمال عبد الناصر رئاسة مصر؛ إذ كان لمصر أياد بيضاء على اليمن. وقد عمل الشعراء فى اليمن على التعبير عن هذه العلاقة وتوطيدها، متغنين بتلك الروابط بين الشعبين.

وقد برز من بين هؤلاء الشعراء البردونى معبرا عن تلك الروابط ومتغنيا بها؛ لأنه رأى فى مصر أمة قوية، تمثلت فى تلك البطولات التى قدّمها الشعب المصرى فى التصدى للاستعمار، ولوقوفه مع أشقائه العرب، ومناصرته إياهم فى نيل الاستقلال، فكان لمصر - متمثلة فى شخص عبد الناصر - شرف النصر للثورات العربية ونيل استقلالها.

وعن أبعاد اللقاء القومى بين الثوار فى اليمن ومصر، كتب البردونى قصيدة "ثائران" التى استعرض من خلالها المهمة الصعبة التى تقع على عاتق الثوار من البلدين، من أجل إعادة البناء، إضافة إلى مدح مصر متمثلة فى رئيسها الذى ضرب أروع الأمثال فى توحيد كيان الأمة:

مَوكِبٌ من مشاعل انطفا الحُسـ ـادُ منْ نفخِهِ وزادَ اشتعالا
وتَدلّتْ أضـواؤه كالعناقيـ ـدِ فأذكَتْ فى كُلِّ عَيْنٍ ذُبالا
وتملا ثُوّارُ "صنْعا" هُـداهُ فاستطاروا يُحرّقونَ الضّلالا
ومضى الثّائرونَ يفدُون شَعباً يَتحدُّونَ باسمِهِ الآجَالا
كالقِلاعِ الجهنّميّاتِ ينقضُّونَ يرمُونَ بالجبالِ الجبالا

هكذا تحدث البردونى عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، مطلقا خياله فيها، مشيدا فى الوقت نفسه بالأعمال الجليلة التى قام بها رجالها، من أجل أن يظفر شعبهم بحياة الرخاء والاستقرار.

ثم ينتقل ليقف عند الدور البطولى لعبد الناصر فى مساندة اليمن؛ يقول:

وبَدَأْنَا الشَّوطَ الكَبيرَ وَأعدَدْ ـــــنَـــا لأحداثِهِ الكِبَار .. "جَمَالا"

وعند زيارة الرئيس عبد الناصر للجمهورية العربية اليمنية سنة ١٩٦٤م، أطلق البردونى قصيدة ترحيب به حملت عنوان "يوم المفاجأة"، صــوّر فيهــا الجموع التى احتفت بقدومه، مجسدا فيه المثل الإنسانية، والمبادئ الإســلامية بتلقائية وعفوية:

جَمَالٌ! فكُلُّ طَريق فَـــــــمٌ ... يُحَيّي وأيْدٍ تَبــثُّ الزَّهَـــــــرْ
تزَامَتْ إليهِ القُرى والكُهــوفُ ... تُولّي جُمُوعٌ وتــأتى زُمَــــــرْ
وهزّتْ إليه حُشُودُ الحِســـانِ ... مناديلَ من ضَــحِكاتِ القمَــــرْ
ولاقتهُ "صنعاءُ" لقيا الــصّغَــار ... أباً عَادَ تحتَ لِــواء الظّفَـــــرْ
تُلامِسُهُ ببنَان اليقِــــــين ... وتَغمِسُ فيهِ ارْتِيَاب البَــصَــرْ
وتَهمِسُ فى صخَب البُــشرَيَاتِ ... أهذا هُوَ القائِــدُ المنتَظَـــــرْ؟
أرَى خَلْفَ بَــسمَتِهِ "خَالِــــــداً" ... والْمَحُ فى وَجْنتيــهِ "عُمَــــــر"
وتَدنُو إليه تُنَــاغِى المُنَــــى ... وتَشْتَمُّ فى نَاظِرَيْــهِ الفِكَـــــرْ

لقد جعل البردونى من المدح هنا خطرات ذهنية صوّر فيه ما يجول فــى خياله الذى جعل من عبد الناصر أبا يسبقه فعله ومعروفه، جاعلا منه فاتحــا من سلالة الخالدين؛ إذ يقبل على الأحداث الكبرى بعد إعمال التفكير. واجتلبت اللغة المصورة من كوامن الجمال الظاهرى وانتشاء الروح (جمــالٌ، يُحيِّــى، تبثُّ الزهر، تزامت، جُموع وزمر، تولّى وتأتى، هــزت حــشود الحِــسان،

ضحكاتُ القمر، لقيا الصّغار...) جاعلا منها نسيجا متكاملا تتفاعل معها النفس بتلقائية وعفوية.

اليمن ودول الخليج:

تربط اليمن بدول الخليج روابط أخوة وجيرة ونسب وعقيدة، لكن ذلك لم يمنع من تلبد العلاقات من حين لآخر، وقد عبر البردونى عن تلك الأحداث بقصائد من شعره؛ إذ كان ينظر إلى دول الخليج على أنها مظهر من مظاهر الغزو الداخلى الذى ينخر فى عظام الأمة، فالثراء الفاحش الذى تتمتع به لم يستغل على نحو صحيح، بل عملت على جذب الكفاءات إليها وسخرتهم فى بناء حضارة زائفة، قائمة على الوهم والمتعة والشهوات، متحكمة فى الوقت نفسه بمجريات السياسة العربية بما تمتلكه من ثقل مادى؛ لكنها مع ذلك تزداد خضوعا للمستعمرين، فتساعدهم على إذلال الأمة وإخضاعها. ومن مظاهر الغزو الذى عبر عنه البردونى، الصراع بين اليمن والسعودية؛ إذ كتب قصيدة "الغزو من الداخل" التى قال فيها:

أميرَ النّفطِ نحنُ يدَا ... ك، نَحنُ أحدُّ أنيابكْ
ونحنُ القادةُ العَطْشَى ... إلى فضلاتِ أكْوابكْ
ومسئولونَ فى "صنعا" ... وفرّاشُونَ فى بابكْ
ومِنْ دمِنا على دمِنا ... تموقَع جَيشُ إرْهابكْ
لقَدْ جئنَا نَجُرُّ الشّعـ ... ـبَ فى أعتَابِ أعْتابكْ
ونأتِى كُلّما تَهْوَى ... تُمسّحُ نَعْلَ حُجّابكْ
ونستَجْدِيكَ ألقَاباً ... نتَوّجُها بألْقابِكْ

فمُرنا كَيفمَا شَاءَتْ   نَوايَا لِيل سِرْدَابِكْ

نَعَمْ يا سيِّدَ الأذنَاب   إنا خَيرُ أذنَابِكْ

بأسلوب درامى حوارى يحمل فى طياته الواقع الذى يراه الشاعر، عبّر البردونى عن العلاقة التى تربط اليمن بدول الخليج، والتى تتلخص فى علاقة التابع بالمتبوع، وهذا ما نلمحه من المفردات المستخدمة فى الأبيات (أنيابك، فضلات أكوابك، مسئولون، فراشون، جيش إرهابك، نمسح نعل حجّابك...) وكلها توحى بمدى المرارة التى أوصلت الشاعر إلى التعبير عن هذا الوضع، وبهذه النفسية المحبطة. وهذا النهج فى شعره لا يأتى إلا نادرا، والذى يريده من وراء ذلك هو التنكيل بالحكام جراء تلك السياسة التى انتهجوها مع دول الخليج. وظلت هذه السياسة فترات متعاقبة، فقد كان البردونى موفقا فى رسم ذلك الواقع السيئ بالنسبة إلى الشعب اليمنى جراء السياسة التى ينتهجها حكامه؛ لأنها لم تأت من فراغ، بل أتت من قراءته للواقع. وبحكم الجوار بين اليمن ودول الخليج، فقد كانت الحدود هى الهم الأكبر فى تلبد العلاقات؛ وهو ما كان مع المملكة العربية السعودية التى سيطرت على كثير من الأراضى اليمنية بالقوة، وهذا ما تناوله البردونى من خلال المقارنة التى أجراها بين صاحب الحق والوسائل التى يمتلكها لإعادة حقه المغتصب، وسارق الأرض والقوة التى يمتلكها فى اغتصاب أراضى الآخرين وسرقتها؛ بقوله:

خَصمُنا اليومَ غيرهُ الأمس طبْعاً   البَراميلُ أمْرَكَتْ (شيخَ ضبَّهْ)

عندهُ اليومَ قَاذِفاتٌ ونِفط   عِندنا مَوطِنٌ يرَى اليَومَ دربَهْ

عِندَهُ اليومَ خِبرةُ الموتِ أعلى   عِندَنا الآنَ مِهنَةُ الموتِ لعبَهْ

صَارَ أغنَى، صِرنا نرَى باحتِقارٍ   ثروةَ المُعتدِى كسِروال قحْبَهْ

جميلة تلك المقارنة التى أجراها البردونى فى الأبيـات، فعنـدما يكـون للإنسان قضية ينافح من أجلها، فإن كل الصعاب تهون أمامه، وهذا ما رددته المفردات المستخدمة هنا:

ما يمتلكه سارق الأرض	ما يمتلكه صاحب الحق
قاذفات ونفط	موطن يرى اليوم دربه
خبرة الموت أعلى	مهنة الموق لعبة
صار أغنى	يرى ثروة المعتدى كسروال قحبة

لم يقف البردونى عند علاقة اليمن بدول الخليج فحسب؛ بل عمـل علـى تعرية هذه الدول وما تقترفه بحق الأمة العربية جمعاء؛ إذ وصل بهم الأمـر إلى دعوة المستعمر والتعاون معه على ضرب الأمة ومقدراتها، وكل ذلك من تحت الكواليس، وفى ذلك يقول:

وشَابَ الليلُ، والسُّلطـــا نُ فى بَوّابةِ المَسْـــرَى
يغوصُ بعُمق رجليـــهِ من اليُمنَى إلى اليُسْـــرَى
ومن كَبْشٍ إلى شَـــاةٍ ومِنْ أهْنا إلَى أمْـــرا
لِهَذا ترتَجيهِ القُـــدْ سُ يرفعُ بيرقَ البُشْـــرَى

كل ذلك نابع من قومية البردونى تجاه أمته، فهو مثقل بهمومه الـسياسية التى أفرغها فى شعره، الذى فيه من التفاؤل بقدر ما فيه من التشاؤم، وإن كان الشاعر هنا أميل إلى تعرية الذات العربية، ووضعها وجها لوجه أمام عوراتها ونقائصها، والذى يفضى إلى تبنيه مذهب الهجاء السياسى، والذى يصيب فيه تارة ويخفق فيه أخرى، وهو شعور يعكس هزيمة شخصية، وانكساراً ذاتيـا

داخليا، هذا الانعكاس الذى يصل الشاعر فيه إلى مرحلة اليأس والقنوط، بسبب الانحطاط العربى الذى وصلت إليه الأمة.

البردونى ونكسة يونيو/ حزيران ١٩٦٧م:

كانت الآثار السيئة لنكسة يونيو/ حزيران ١٩٦٧م هائلة على العرب جميعا، بسبب خسائرهم المادية والعسكرية الكبيرة فيها(*)؛ فضلا عن الواقع النفسى لهذه الهزيمة؛ وقد عالج البردونى هذه الهزيمة فى قصيدة عارض فيها بائية أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية، وهى كما يرى د. عبد العزيز المقالح من القصائد الحزبرانية القليلة، التى استطاعت أن تسمو على الواقع، وأن تشير ولو إشارة عابرة إلى الأسباب الكامنة وراء الانتكاسة القومية. وقد حاول البردونى من خلالها إجراء مقابلة بين عرب اليوم الذين خاضوا معركة ١٩٦٧م وغيرها، وعرب الأمس الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ومنها عمورية بقيادة الخليفة العباسى المعتصم، ناقلا فيها الحالة التى وصلت إليها الأمة من التمزق والشتات الذى آلت إليه، وكأنى به يثير أبا تمام من خلال توجيه الاستفهام المقصود به التنبيه والإثارة:

ماذا جرى... يا أبا تمّامَ تسألنى؟ عفوا سأروى... ولا تسألْ.. وما السببُ

لقد عصفت الهزيمة بأحلام الشارع العربى من شعراء وعسكريين ومثقفين وآمالهم، ففيها فقد العالم العربى أولى الحتميات ألا وهى الثقة بالنفس، وازداد الشعور بالمأساة، ولهذا كان الشعراء أكثر تأثرا ومعاناة، فالمعاناة التى يرويها البردونى لأبى تمام هى مأساة ضياع فلسطين كلها، وهضبة الجولان، وأكثر من ١٧٪ من مساحة مصر.

---

* فقد احتلت إسرائيل ما تبقى من فلسطين وهضبة الجولان فى سوريا وسيناء فى مصر.

لقد مثلت تلك الهزيمة كابوسا ثقيلا ومخيفا في الوقت نفسه، جثم على صدر شاعرنا، حين يذكر احتفاء الأعداء بالبلاد العربية المغتصبة؛ يقول:

يَدْمى السُّؤالُ حيَاءً حينَ نسألُهُ: كيفَ احتفَتْ بالعِدَى (حيفَا) أو (النقبُ)

مَنْ ذا يُلبّى؟ أما إصرارُ مُعتصِمٍ كَلا وأخْزى من (الإفْشين) ما صَلبُوا

اليومَ عادتْ علوجُ (الروم) فاتحة وموطِنُ العَربِ المسلوبُ والسّلبُ

ماذا؟ فعلنا غضبنَا كالرِّجالِ ولمْ نصْدُق...وقدْ صدَقَ التنجيمُ والكُتبُ

فأطْفأتْ شُهبُ (الميراج) أنجُمَنَا وشَمْسَنا وتحدّتْ نارَها الخُطبُ

وقاتلتْ دونَنا الأبواقُ صامِدةً أمّا الرِّجالُ فماتُوا.. ثمَّ أو هَربُوا

هكذا صور البردوني حال الأمة، من خلال تدافع الصور وتوالي الأحداث؛ ومنبع المفارقة هنا هي فكرة التناقض بين عرب الأمس وعروبة اليوم. لقد احتل المعتدون البلاد العربية ولم يتحرك قادتها؛ لأن الحكومات العربية ازدحمت بخونة الأوطان، مستنطقا من خلال ذلك الماضي المشرق للأمة، عروبة الأمس عندما انتفض المعتصم ليلبّي صرخة امرأة عربية مسلمة تستغيثه، محرقا في غزوته تلك أشهر قواده لخيانته. لقد كانت هزيمة ١٩٦٧م بمثابة الستار الذي انقشع عن الوجوه الحقيقية للحكام العرب، فهم يلقون الخطابات بدون أفعال تذكر، عكس عرب الأمس، وهذا ما حاول البردوني إبرازه في القصيدة؛ يقول :

عُروبة اليوم أخرَى لا ينِمُّ على وجودِها اسْمٌ ولا لونٌ ولا لقَبُ

تسْعونَ ألفاً لعَمُّوريّة اتّقدُوا وللمُنجّم قالوا إنّنَا الشُّهُبُ

قيلَ انتظارُ قِطافِ الكَرم ما انتَظرُوا نُضجَ العنَاقيدِ لكنْ قبلها التهبُوا

واليومَ تِسعُونَ مليوناً وما بلغُوا نُضْجاً وقد عُصِرَ الزيتُون والعِنَبُ

تنسَى الرءوسُ العَوالى نارَ نَخوتِهَا		إذا امتَطاها إلى أسيَادِهِ الذنَبُ

لغة الشاعر فى هذه الأبيات قوية مصحوبة بالموسيقى، من أجل زلزلة الضمير العربى الخامل، التى لا تتفق مع الهمس؛ وإنما تتفق مع استدعاء الشاعر الأحداث العظيمة التى تفخر بها الأمة، من أجل تفجير طاقات المجتمع، وتغيير مجالات التفكير فى حياتهم، وذلك ما تمخضت عنه شكوى الواقع لأبى تمام، من أجل إرشاده إلى الطريق السوى، والعودة إلى مكامن العزة والكرامة التى كانت عليه، مستخدما لذلك أسماء الشخوص (معتصم، الإفشين) وأسماء المدن (حيفا، النقب...)، ومستخدما كذلك المفردات (حياءً، يلبِّى، إصرار، كلا، علوج، الشُهب، التهبوا...) الدالة على شدة الحركة والعنف والمواجهة، من خلال توظيفها فى أساليب إنشائية خاضعة للحوار، ودالة على النداء والاستفهام والتعجب والنفى، مولِّدًا منها الطباق والمقابلة، من أجل أن يُحدث المفارقة والتحول فى العلاقة التصويرية.

(حَبيبُ) مازالَ فى عينيكَ أسئلة		تبدُو... وتنسَى حكَاياهَا فتنتقِبُ

ومَا تزالُ بحلقى ألفُ مُبكيةٍ		منْ رَهبةِ البَوحِ تستَحيى وتَضطربُ

يكفِيكِ أنّ عِدانا أهدرُوا دَمَنَا		ونحْنُ منْ دمِنا نحسُو ونحتلِبُ

سَحائبُ الغزو تشْوينا وتحجُبُنا		يوماً ستَحبَلُ مِن إرْعادِنا السُحُبُ...؟

ألا ترى يا "أبا تمّامَ" بارقَنا		(إنّ السّماءَ تُرجّى حِينَ تحتَجِبُ)

كان فى الإمكان أن ترتبط هذه القصيدة بالمناسبة التى قيلت فيها وتندثر بانتهاء المناسبة؛ لكن موضوعها الحاضر فى أذهان الناس دوما هو ما جعلها فوق المناسبة، لتبقى عبرة كلما أعيدت قراءتها، فالشاعر عندما أعطى الهزيمة حجمها فى الأبيات السابقة، لم يؤد به ذلك إلى فقدان الأمل؛ إذ لم يكن انهزاميا باكيا على أطلال الهزيمة فى شعره؛ لكنه حاول أن يجعل من يونيو ثورة

عربية داخلية وخارجية، فهو لا يكتفى بتصوير الواقع فحسب، بل يشكل واقعا أكثر خصوبة وأعظم عطاء. وهذا ما يميز البردونى عن كثير من الشعراء الذين جعلوا من الهزيمة سبيلا لتحطيم نفسيات الشارع العربى، من خلال إسقاط الهزيمة على الأمة وإلصاقها بها.

والواضح من الأبيات السابقة أنها مباشرة لا غموض فيها، وهذه طبيعة الشعر السياسى، وإذا كان كثير من النقاد يعدون المباشرة فى الشعر تجعله سطحيا، فليس الأمر بهذه البساطة بالنسبة إلى البردونى.

حرب أكتوبر ١٩٧٣م:

لقد حظيت حرب أكتوبر ١٩٧٣م بأهمية كبيرة لدى المبدعين؛ إذ إنها تحققت بعد هزيمة ١٩٦٧م القاسية. ولم تكن تلك الحرب مفاجأة لإسرائيل فحسب، بل كانت مفاجأة كذلك للإنسان العربى الذى سيطر عليه اليأس من جميع الجوانب والاتجاهات، فقد اتفق على تسمية تلك المرحلة بحالة اللاسلم واللاحرب، إضافة إلى ذلك قرار "السّادات" القاضى بطرد الخبراء السوفييت من مصر فى ٨ يوليو ١٩٧٢م، كل هذه العوامل تضافرت لتؤكد استبعاد شن الحرب.

وقد كان للشعر فى اليمن الدور الفعال فى تناول هذه الحرب؛ أمّا شاعرنا البردونى فقد أصدر ديوانه الخامس (السّفر إلى الأيام الخضر) بعد حرب أكتوبر بسنة، والواضح أنه لم يتناول فيه انتصار أكتوبر سوى مرة واحدة، اتهم الحكومات العربية بالتواطؤ والعمالة مع الاستعمار، من أجل تدمير الشعوب العربية وكسر طموحها، وخير دليل على ذلك تحويل انتصار أكتوبر إلى هزيمة لا تقل فظاعة عن هزيمة ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، مع اختلاف الأساليب فيهما، ففى حرب ١٩٦٧م سُلبت الأرض العربية بالقوة، أما فى حرب ١٩٧٣م فقد بيعت الأرض بلا ثمن، وما كان ذلك ليكون إلا بسبب

الضغوط الأمريكية على مصر، التى طالبتها بالخضوع لمطالب تصب فى صالح إسرائيل، وقد انتقد البردونى مصر فى خضوعها لتلك الضغوط، قائلا:

خُطَى (أكتوبرَ) انقلبتْ حُزيرانيَة الكفَن
ترقّى العَارُ منْ بَيْع إلى بيع بلا ثمَن
ومن مُستعْمر غازٍ إلى مُستعْمرِ وَطنِى
لمَاذا نحْنُ يا مَربَى ويا منْفى بِلا سكن
بلا حُلْم بِلا ذكْرى بلا سلْوى بلا حَزَن؟

هكذا رسم البردونى ذلك النصر الذى تحول إلى هزيمة، والذى يمضى الشاعر فيه، مدعما إياه بأبعاد جديدة، فبيع الأوطان أخذ بُعداً آخر، تمثل فى الغزو الداخلى الذى كان أشدّ وطأة على الأمة من الحروب المدمرة، فحرب أكتوبر – كما يقول البردونى – أظهرت الوباء، وكشفت خلايا الغزو التى تنخر فى عظام الأمة:

غُزاةُ اليومِ لا أشاهدُهُم وسيفُ الغَزوِ فى صدْرى
فقد يأتُونَ تبْغاً فى سجائرَ لونُها يُغْرى
وفى صدقَاتِ وحْشِى يُؤنْسِنُ وجْهَهُ الصخْرى
....
غُزاةُ اليومِ كالطاعون يخفَى وهُو يستشْرى

هذه الصور تعكس تفاعل الشاعر مع الحدث، من خلال ما يحمله من مشاعر وانفعالات مع الواقع، فما يجرى على الواقع يهتدى بما يعتمل فى داخل الشاعر. وهذا التشخيص هو الذى اعتمد عليه الشاعر بشكل كبير فى تشكيل صور ذات دينامية عالية، وحاجة البردونى إلى هذه الصور لا تقل عن

حاجة الواقع المعيش لها، فالصور التى أتى بها غريبة شديدة الغرابة لم يكـــن لها أن توجد فى خيال القارئ.

وبمناسبة مرور خمس سنوات على حرب أكتوبر – أى فى سنة ١٩٧٨م– طلع البردونى بقصيدة "هدايا تشرين"، رسم فيها صورة كئيبة تتضح بالأوجاع للذكرى؛ يقول:

أتراهُ يُحسُ مِنْ أىّ ثـــغْـــرَةْ؟ جَاءَ يَهْمِى مرَارةً فوقَ حَسْرَةْ
يرتَمِى بعْضُهُ على حُزْنِ بَعضٍ مِثْل أوجَاعِ فُرقَةٍ بعدَ عِشْـــرة
مثْل ملْهى مِنَ الثعابينِ يُحيـــى مِنْ عُروقِ الغُبارِ للدُّودِ سَهْرةْ
مثْل أحْلامِ شارعٍ كانَ قـــصراً مِثْل أنقاضِ فِكرةٍ تَحْتَ سكْرةْ

الألفاظ التى تحملها الأبيات تكشف لنا حالة مريبة مـــن الحـــزن المريـــر (ثغرة، مرارة، حسرة، حزن، أوجاع، فُرقه، الثعابين، الغُبار، الدّود، أنقـــاض، سكرة...) فضلا عن الصور والتشبيهات اليائسة لإنسان مهزوم، مواصلا ذلك الوصف من خلال تعبيره عن بشاعة الحياة؛ قائلا:

جَاءَ مِن صُفرَةِ القبـــورِ إليهـــا يمتطِى هِجْـــرَةً إلـــى قحـــطِ هِجْـــرَةْ
سَاحِباً خَطْـــوهُ كأشْـــلاءِ قـــشٍ رافِعاً وجْهَهُ علـــى ثُقْـــبِ إبْـــرَةْ
حامِلاً أغْربَ الـــشّظايا كـــنَعْش لفظتـــهُ الريـــاحُ مِـــن كُـــلِّ ذرّة

(القبور والأشلاء والنعش والرماد) كلها مفردات لا تحمل فى طياتها غير مظاهر الموت والفناء، فماذا تحمل صفرة القبور سوى صدى المرور الخائب للزمن الذى لا تراه إلا من خلال النعى والموت، والذى يتردد كل عـــام عنـــد مرور هذه المناسبة، فماذا عساه أن يحمل سوى (أغرب الشظايا كنعش لفظته الرياح من كل ذرة).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل ينقل لنا صدى الواقع المتمثل فى أغانى نشوة الانتصار، من خلال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، التى أنعشت ذاكرة العرب بالمجد التليد، والتى لم تسلم هى الأخرى من تحقير الشاعر؛ إذ عدت الأغانى عنده وأخبار النصر قيحا نازفا؛ يقول:

نازِفاً قيحَهُ على كُلِّ مقهى　　　　أغنياتٍ ونشرةً بعدَ نشرَهْ

لقد ضاق البردونى بضجيج الحياة وقبحها؛ إذ تحولت الأغانى البلهاء والنشرات الأخبارية الكاذبة إلى غثاء يفر منه الشاعر، موضحا النتيجة التى توصل إليها، وهى أن النصر الحقيقى كان لإسرائيل والغرب الذين وقفوا معها، ولم يكسب العرب شيئا، وما رواج أسواق النفط فى العالم إلا سببا فى ثراء دول الخليج، وبهذا فالعرب ملكوا الانتصار وملكوا المال، لكنهم لم يحتفظوا بهما:

جَاءَ تشْرينُ مَرّةَ ثُمّ ولّى　　　　غيرَ حُرٍ وأرضُنا غير حرَّهْ

فتشرين لم يسُق لبلاده "حُرية"، ولم يكن هو فى الأصل "حُـرّاً"، فالزمن السليب لن يدع مجالا للحياة بالظهور من جديد.

مصر والعَرب:

من المعلوم ما لمصر من ثقل كبير فى العالم العربى، فقد فرح العرب كثيرا بالانتصار الذى حققته فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م؛ ولكن سرعان ما تهاوى هذا النصر بعد أن ذهب السادات إلى إسرائيل ليعترف بها، ويعقد معاهدة سلام معها بشكل منفرد، بعد أن رفض العرب الخوض فيها، وكان لهذه المعاهدة أثرها فى الشعر العربى بشكل عام، فكان هناك المؤيد والرافض، وأغلبهم من رفضها وعدها خيانة وهم كُثُر، ومنهم البردونى الذى عبر عن موقفه هذا فى قصيدة (خوف ...) بقوله:

غيرَ الذى تُبْدى تُريـــدُ ولا تَرَاهـــا كالمُريـــدَهْ

......

لكنْ لمَـاذا يُغْدِقـــو نَ؟ أَشُمُّ رَائِحَـة المَكيـــدَهْ

وأرَى مُؤامَـرة، لهَــا شكْلُ الأخـــوّةِ والعقيـــدَهْ

تدنُو كمُشْفِقــةٍ، كعَـا شـقةٍ كَقاتِلَـــةٍ عَنِيـــدَهْ

مَـــاذا؟ أســـمّيهَــا؟ تُبلّـــدُنِى أسَـــميهَا البليـــدة

وتزيـــدُ من أمّيتِـــى هَـذى الإذاعة والجَريـــدَهْ

كانت نظرة العرب تتفق على دور تآمرى لمصر ضدهم، وقد زادت هذه الهوة اتساعا – كما قلنا – عند زيارة السادات للقدس فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٧م، وعلى أثر هذه الزيارة قرر معظم الدول العربية فى مؤتمر القمة ببغداد قطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، ودانت موقف السادات؛ إذ شق وحدة الصف العربى وعقد صلحا منفردا، وأضعف الجانب العربى فى صراعه مع إسرائيل. وبوصفه رد فعل تجاه الخلاف العربى المصرى نتج خطابان إعلاميان متقابلان اصطبغ الشعر السياسى بلونهما، فهيمنت عليه الخطابية والمباشرة والتقريرية؛ غير أن هذه الهيمنة لم تكن مطلقة، فهناك بعض الأصوات التى رسمت لقصائدها بناء خاصا كما فعل البردونى فى قصيدة (سباعية الغثيان الرابع) التى هجا فيها الرئيس (السّادات) على سياسته التى انتهجها:

كَرَأْس إلى قدمَيهِ ارتَحَـلْ كَخَاتمـةٍ مَالهَا مُستَهَـلْ

كَأعقَابِ مُنهـزمٍ وجْهُـــه قَفَـاهُ كبِـدءٍ بلا مُقتَبـلْ

كثيرا ما يرجع البردونى فى شعره السياسى إلى السخرية (لأن شر البلية ما يضحك) فنحن فى زمن الحقائق فيه مقلوبة، والموازين منكوسة، وهذا ما نستوحيه من الصور المرسومة (فالرأس رحل إلى القدم، والخاتمة ليس لها بداية)؛ يقول:

لأنَّ الذى كَالدُّخان ارتَقى ... كذاكَ الذى كالشَّظايا نَزَلْ

تُسيِّسُ حتى تُرابِ القُبورِ ... وتقبرُ حتى جَنين الأمَلْ

يواصل البردونى تهيئة أرضية الأحداث الجديدة التى وصلت إليها الأمة فى أكثر من عشرين بيتاً، وبعدها ينطلق إلى الاستصراخ والاستنجاد "بالمتنبى"، مسلّما قضيته وقضية عصره إليه؛ لأن حاجة البردونى إلى المتنبى لا تقل عن حاجة الواقع المعيش لبطولاته، فى مواجهة هؤلاء الذين يقتلعون الأمة من جذورها، ويمسحون تاريخها؛ يقول:

فيا (أحمدَ بنَ الحُسين) انْهمرْ ... سوى الدمع ناداكَ غيرُ الطَّلَلْ

أغارَ (الدّمستقُ)؟ بلْ وامتطى ... إلى ظَهْرِنا وجْهَنا وانتعَلْ(*)

ثم يوضح لأبى تمام أن الروم الذين أغاروا على الأمة العربية بالأمس قد عادوا، ولكن بجلود مختلفة عما كانت عليه فى عهده:

سوى الروم رُومٌ، ورُومٌ أتوا ... كَعهدِكَ رُغمَ اختلافِ العِلَلْ

أتعْرِفُهمْ؟ إنهُمْ مَنْ رَأيتَ ... وإنْ غيَّرُوا خَيلهُم والخَوَلْ

فروم اليوم صار لهم نخّاسون يأتمرون بأمرهم، وينفثون سمومهم وشرورهم فى ربوع الأمة، وقد رمز للسّادات باسم عبد الخنى الذى يطلق

(*) الدمستق: هو قائد الروم فى حروبهم مع سيف الدولة، وقد ورد فى أكثر من قصيدة من ديوان المتنبى.

على كافور الإخشيدى فى هجائيات المتنبى له، وأصفى لكيسنجر النخاسة؛ يقول:

و(عبدُ الخَنى) نفسُ عبدِ الخَنى ... وإنْ عصرَنَ الشكلَ واسمَ الخَلَلْ

و(كيسنجرَ) اليومَ نخاسُهُ ... لأنّ النّخَاسَة صَارَتْ دُوَلْ

واستخدام البردونى صوت المتنبى يعكس رغبته فى استنهاض الهمم، من خلال استحضار رموز الماضى المجيد، فلجأ إلى استدعاء المتنبى؛ لأن العصر هو عصر المتنبى بكل ما فيه من أشباه كافور، ومن الروم أشكال وأصناف كثيرة. والمتنبى شخصية شديدة الاعتداد بنفسها، طموحة، رفض العصر جهارا، وهذا ما جعل البردونى يستدعيه ويرتدى ثوبه وصوته. وموقف البردونى من السادات كان خاضعا للخطاب الإعلامى العربى الذى توجّه بكل طاقاته إلى انتقاد مصر ونهجها السياسى الذى مضت فيه من أجل معالجة الأزمة.

مأساة لبنان:

مازال البردونى يتحدث عن مأساة لبنان، تلك العروس التى اجتاحها العدو الغاشم (إسرائيل)، ناشرا الموت والرعب فى كل أرجائها، ففى قصيدة "رسالة إلى صديق فى قبره ١٩٨٣" يرثى البردونى فيها زميله "خليل الحاوى"، مشيرا إلى انتحاره على أسوار بيروت، ومنتقدا فى الوقت نفسه الواقع السياسى والاجتماعى الذى تعيشه الأمة بشكل عام ولبنان بصفة خاصة، متبرما من الحياة وقسوتها المادية، وحرص الناس على زخرفة الحياة ورنين الألقاب، ويغبط صديقه الميت على عالمه المتفرد الهادئ العادل؛ فالموت الذى كان حياديا فى بداية القصيدة زاوجه الشاعر بالظلم ليأخذ دلالة أعنف، فقد غدا الموت غير الموت؛ إنه يؤذى الأحياء ويظلم الحى، أما الميت فقد استراح؛ غدا الموت حديثا يغزو الحى فى طعامه وشرابه ووطنه وعالمه، ليبوء بموتتين

وقبرين، موت النفس العفيفة النقية التى ماتت من الحى، وموت الوطن فى استبداده وتخلفه. وهو يبتدئ قصيدته بهذه الحيرة التى تنتابه وتقض مضجعه. وقد استغل هذه المرثاة ليعبر عن ذلك العار الذى يشكله الزعماء العرب لشعوبهم، وهى المأساة التى ظلت تراود شاعرنا فى ثنايا أبياته، التى يقول فيها:

مِنْ هُنا أشْتَفُّ مَاذا تنتَوى ... أسْألُ القَبْرَ: أيُنسيكَ افتِقَادِى
إنّنى يَابنَ أبى مُتَّحِد ... بثرَى مثوَاكَ: هَلْ ترضى اتّحادِى؟
عِندَكَ النَّومُ الطفولِىُّ وأنَا ... لِى زغاريدُ الصّواريخ الشّوادى

لم يمل البردونى من ذكر المأساة التى تعانى منها الأمة، والتى تولّى كِبْرها الحكام، على الرغم من أن الواقع يقول خلاف ذلك، وهذا ما ترجمه البردونى فى الأبيات:

أدّعى الحَشْدَ أمامَ المُعتَدِى ... ثُم يعدُو فوقَ أنقاض احتِشَادِى
وبرغْمى يُصبحُ الغَازى أخِى ... بعدَما أضْحَى أخِى أعدَى الأعَادِى
أخذتْ بيروتُ رقْمَ القبر من ... (صَفَدٍ) قالتْ: على هَذا اعتِمَادى
أترانِى لَمْ أجَربْ جَيّدا ... صَادَرُوا خطْوى وآفاقَ ارتِيَادى
متُّ يوماً يا صَديقى وأنَا ... كلَّ يوم والرّدى شُربِى وزَادِى
أنتَ فى قبْرٍ وحيدٍ هَادِئٍ ... أنَا فى قبْرَين: جلدِى وبِلادِى

وهذه الأبيات توحى بالمعاناة والمضايقات التى يتعرض لها المثقفون فى أوطانهم، فأصبحت الكلمة عندهم تساوى كثيراً، لذلك فهم لم يفرقوا بين النادى والسجن، فقد تساوى عندهم لكثرة ترددهم عليه؛ يقول:

ذلِكَ السّهلُ الذِى تعْرفُهُ ... باتَ سجناً لصَقّهُ سجنٌ ونَادِى

أما السهل الذى كان متسعا، لم يُبن فيه دار علم تنهض بالشعوب الجاهلة، أو مستشفى يعالج فيها الفقراء؛ بل أصبح الحىّ يئن بميتات متعددة فى قلبه، وقبور مفتوحة تحت قدميه، إنه يغبط الميت على كل شىء؛ لأن الحياة غدت موتا بطيئا للنفس الإنسانية، أما الظلم فقد غدا موتا إباديا بشعا.

وهكذا بدأ الزمن يتغير ويتبدل، صار بلا لون ولا طعم ولا رائحة، إنه زمن العار والخيانة، زمن أصبح فيه المحتل صديقا.

حرب الخليج الثانية:

إذا كانت النكبات التى سبق الوقوف عندها تأتى من الخارج؛ فإن حرب الخليج الثانية كانت نكبة داخلية، تمثلت فى احتلال الكويت من دولة عربية جارة هى العراق، وكان من آثار الاحتلال تمركز القواعد الأمريكية والأجنبية الأخرى فى المنطقة.

وقد عالج البردونى هذه الأزمة فى أكثر من قصيدة، ففى عام ١٩٩٢م أصدر البردونى ديوانه "جواب العصور" الذى يضم مجموعة من القصائد التى تحدث فيها عن حرب الخليج، منها على سبيل المثال "زفة الحرائق"، و"المحتربون"، و"وريقة من كشكول الرياح".. وفى القصيدة الأولى يصف البردونى المجتمع الأمريكى الذى يعيث فيه الإيدز خرابا ودمارا؛ إذ يقول:

شَوقُ (واشنطن) إلى (بَنَمَا) يستحِثُ الإدْزَ والصمَمَا

ويُوصِّى ما سيَنْقُذُهَا كيفَ يجنى ربحَ ما غرِمَا

كَيفَ بشْويها على وَضَم ويُذيبُ العَظْمَ والوَضَمَا

كما كشف البردونى الوجه الحقيقى لأمريكا، من خلال الجرائم التى ارتكبتها ضد الإنسانية، ليس فى الخليج فحسب، بل فى كثير من دول العالم،

محاولةَ السيطرة والهيمنة عليها بشتى الطرق والأساليب، وهذا ما عبر عنه بقوله:

كَمْ أحَالتْ تِلكَ عـــامِرة | عَدماً يستوطنُ العدَمـــا
سَلْ (هرُوشيما) وصِنوتها | - يا صديقى - مَن أبادَهُما؟
لَو رَآها سئكم لأبَـــى | أنْ يُسمَّى سيلةُ العَرِمَـــا
ناوَشَتْ (كُوبَا) لتأكُلَهـــا | فاستَجاشَتْ همَّها هِممَـــا
و(الخليجُ) اليومَ يذكرهـــا | ما الذى ألقتْ وكيفَ طمَـــى
فى (غرينادا) هَمَتْ لهَبـــاً | يعرفُ الشيطانُ كيفَ همَـــى
هشمتْ فى (ليبيا) قمَـــراً | يحتذِى مولى الذى هشَمَـــا
ولهَا فى (كوريا) خبَـــرٌ | قُلتُ: هل أرويكَ؟ فاحتشَمَــا!

استطاع البردونى أن يدلل على بعض الجرائم التى ارتكبتها أمريكا ضد الإنسانية، فهذه ("هيروشيما"، وصنوتها "نجازاكى") أحالتهما إلى عدم عندما ألقت القنبلة النووية عليهما فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، أما "كوبا" صاحبة النظام الاشتراكى فقد استخدمت معها طرقا عدة من أجل السيطرة عليها والتهامها، وهى لا تزال تمارس عليها حربا شعواء سواء إعلامية أو عسكرية أو اقتصادية إلى يومنا. ومن العار الذى ارتكبته أمريكا كذلك كان فى (غرينادا، وليبيا، وكوريا) وهذا الخليج سيظل عارهم الذى لا ينتهى. وقد وظف البردونى لذلك مفردات لتعميق أبعاد الحزن والمأساة (يشويها، وضم، يذيب، أبادهما، طمى، لهبا، هشمت...). وفى المقطع قبل الأخير يوظف البردونى تقنية التساؤل، لا ليعبر عن الدهشة، بل ليقدم صورة للصراع النفسى والمعاناة الداخلية التى تعيشها الشعوب المقهورة، مقررا فى الوقت نفسه حقيقة

يجب أن تفهمها أمريكا وتأخذها فى الحسبان، التى جاءت فى صيغة الاستفهام الاستنكارى:

قلْ لواشنطن متــى اقتدرتْ　　　أمّة أنْ تبلغَ الأمَمَـــــا؟

وفى قصيدة أخرى يقف البردونى فيها على أزمة الخليج، ليهجو القـوى العظمى المتغطرسة فى العالم، كما يهجو فيهـا براميـل الـنفط وأصـحاب الثروات؛ وهو ما أورده فى قصيدة "وريقة من كشكول"، قائلا فيها:

قيلَ عن (صدّام): (بوش) اليومَ صرّحْ　　　قالَ (غربتشوف): (هلمّتْ كـول) وصَنّـحْ
تاهَ (بيكَـــرْ)، ما الـــذّى يعْمَلُــهُ　　　مُسْـتَقَرُّ النفـطِ يهـتـــاجُ ويَرمـــحْ
مـــاتَ برمـيـلٌ بأولـى سكتيــــةٍ　　　ونجَــا ثــانٍ لهُ قلْـبٌ مُـصـــفّــحْ
أىُّ شَىءٍ فى الخليج استحدثَـــــتْ؟　　　ما أطَـاحتْ فيـــهِ إلا بالمُطَــــوَّحْ
صرّحوا، قــامُوا، أشــارُوا، وصَنّـحُوا　　　أمـــراءُ القبحِ مــنْ مَــراهُ أقْبَــحْ

هكذا بدأت الأزمة وكأنها فيلم سينمائى رُســمت أدواره بإتقــان، وكـأن الشاعر يعمق فى شعورنا وإحساسنا الرضوخ لهذا الواقع بدون أن نحرك فيه شيئا؛ لأن الأوراق فيها قد تداخلت، واختلط فيها عقد الأمة، وتمزق الـشمل، وصار الأحباب أعداء، وبعكس ذلك اجتمع الأعداء وصاروا أصـدقاء. وفـى حديث خاص للشاعر فى أثناء وجوده فى عمان لحـضور مـؤتمر الأدبـاء والكتاب العرب الثامن عشر – أجراه معه د. محمد أحمد القضاة – أكد فيه أن أزمة الخليج خرج منها العرب ممزقين وأشلاؤهم مبعثـرة، وأنهـا أحـدثت انقسامات خطيرة، وكشفت مواطن الخلل والتآمر على الأمة العربية.

والقصيدة ترتبط ارتباطا قويا بحرب الخليج التى استمر أثرها فى الأمـة، حتى غدت مسلوبة الإرادة، غارقة فى الدمار والفرقة والتمزق... وبعد ذلـك يعرّض فى سخرية بالعرب، كيف استقدموا النجدة من الغرب، ليشرب العراق

كأس العلقم، وقد قامت سخريته على فلسفة الرفض، فلسفة القـراءة النقدية الواقعية الموضوعية، وليس فلسفة التأمل الهروبية، معرضا فى الوقت نفسه بالدول المشاركة فى العدوان بشكل مباشر، مع ذكر بعض الأماكن التى صارت مسرحا للحرب:

كانَ ذاكَ الوقتُ في كَاظِمَـــةٍ   طلْقـــةً تقتَادُ إعْصَاراً مُسلَّـــحْ
يُغرِقُونَ الآنَ مُوسكو لَبنـــانُ   الكويتُ الآنَ فى نَارينِ يسبَـــحْ
ارتَوَتْ باريسُ نيُورك ابتَـــدتْ   كأسُها صدّامُ فى المِرقابِ أصبَحْ
فى (براغ) الأزمةُ السَكرَى صَحتْ   السُّليمانيّـــةَ اعتَمَتْ بِمذْبَـــح

الأسلوب مباشر، واللغة واضحة، ولا يوجد فيها أى غموض، فالأمة صارت مسلوبة الإرادة، والمخطط قد نُفذ على أحسن ما يكون، فالأرض العربية احتلت، والدماء العربية سالت، والأموال العربية نهبت، وكان كل ذلك بأسلحة أمريكية وأوربية وبتمويل عربى، فصار النفط مصدرا من مصادر تفريقها.

والمتأمل فى هذه القصيدة وقصائد أخرى يجد أن البردونى قد ارتبط بالزمن العربى ارتباطا وثيقا، واصطبغت قصائده السياسية بمسحة إعلامية واضحة.

مما تقدم نستطيع القول بأن شعر البردونى كغيره من شعر معاصريه أصبح موجها إلى الشعب بعد أن كان الشعر موجها إلى الحاكم فى العصور القديمة، ومن أهم مظاهر انقلاب الشعر عنده هى محاولة الانفصال عن التعبيرات الموروثة.

كما استطاع البردونى أن يجعل من عاهة العمى مصدراً لتفوقه، متخلصا من الهجاء والعجز، بفضل الرعاية الجيدة، موظفا السخرية التى تكونت لديه

من الموروث، ومن الشعر العربى القديم، الذى استطاع صهره من جديد على نحو يتطابق مع المجتمع اليمنى.

والشعر عند البردونى كان وليد محنة خاضها وعاشها، مواكبا الأحداث؛ وهو ما جعل شعره يتدرج فى تفاعله مع الأحداث صعودا وهبوطا، موظفا أغراض الشعر المختلفة فى خدمة قضاياه الوطنية والقومية، وهذا ما عملت القصيدة السياسية على تحقيقه.

وقد تناول قضايا الأمة العربية معطيا كل قضية ما تستحقه من الأهمية التى تحتلها، بأسلوب يختلف عن غيره من الشعراء؛ إذ نظر إليها من منطلقين؛ الأول يستند إلى مقومات مشتركة بين الشعوب العربية كالدين والنسب، والآخر منطلق ثورى انطلق فيها من الثورة على نظم الحكم الرجعية

وأما نظرته إلى دول الخليج فكانت ترتكز على أساس أنها مظهر من مظاهر الغزو الداخلى الذى كان ينخر فى عظام الأمة.

وقد جعل من نكسة يونيو/ حزيران ١٩٦٧م ثورة عربية داخلية وخارجية، ولم يكتف بتصوير الواقع بل شكل واقعا أكثر خصوبة وأعظم عطاء، متميزا عن غيره من الشعراء الذين جعلوا من الهزيمة سبيلا لتحطيم نفسيات الشارع العربى.

كما نظر إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣م بتميز؛ إذ جعل منها هزيمة لا تقل عن هزيمة ١٩٦٧م، مع الفارق بينهما أن الأرض فى ١٩٦٧م سلبت بالقوة، أما فى ١٩٧٣م فقد بيعت بلا ثمن.

وكثيرا ما استخدم البردونى فى شعره القناع من خلال استدعائه الشخصيات التراثية كـ (المتنبى، وأبى تمام...) لحاجة الواقع المعيش إلى مثل هذه الشخصيات، واصطبغت قصائده بمسحة إعلامية واضحة.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية